(18) فضافوا روائع جديدة الى المآثر الاموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتبية بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة ونضرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عبد المومن (19) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Basset)اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي » ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (20) وبذلك تعززت الوصلة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الاساسية لنصف سكان الحواضر (21) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية (22) او حضرية ممدودة مثل بعدي (اي اسكافي بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي السواقي الصحراوية) وتكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاج) في حين تزخر بالالفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي حكم يتدخل بين الناس للمهادودة) ومواكني (مصلح المنجانات) وغواساي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما ينيف على المائة في قالبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبن) والحرار والحراث والحمار والحمالي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحى المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة او الطاحونة التي تدار بحركة بغل او حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران واللباد (صانع اللبد) . اما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من اصل اندلسي) ودار العميان والمرقطار وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبلاجة (صانعة الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجعابية (لصنع جعاب المسدسات) والسرايرية

---

(18) وقد امر المنصور الموحدي « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت ..» (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81) ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 094 3 ودور الصابون 47 ودور الدبافة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وافران الخبز 1170 واحجار صنع الكاغد (اي الورق وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (زهرة الآس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الارحي بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في معجمه ج 6 ص 331)

(19) المسند الصحيح الحسن ص 65 – 1925 .

(20) ويليام مارسي ، كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي

(21) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 – 1924 في كتابنا (معطيات الحضارة المغربية ج 2 ص 78 .وفي كتابه (الحناطي الاسلامية – باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) ينسم في جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات

(22) الجاحظ يسمي العامية لغة المولدين او البلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111)

لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الاعمدة) الصقالة والدهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعو نول النساج) واذا خذنا مثالا لباقي المدن المغربية فى شخص اصغر مدينة وهي ميناء ازمور لاحظنا وجود معظم هذه لحرف عدا التنويع فى النسيج وحرف جديدة لحرفة البغازة وهم بائعو السمك بالجملة والشراحة هم مجففو الحوت ، وهنالك الفاظ مغربية اندلسية مبتكرة نجدها فى كتابت تطور الفكر والحضارة الخ . مثل القسال والقابض بدل الجمركي او الجابي وقد استند السيد محمد كرد علي لهاتين لكلمتين للتدليل على اصالة الابداع اللغوي فى المغرب والاندلس (عجائب اللهجات ـ مجلة مجمع للغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لاول وهلة من مقارنة نوع المصطلح فى عاصمتي الشمال والجنوب مدى تاثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث نجدات تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق فى بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع فى ذلك اذا اعتبرنا ان مدينة فاس اصبحت فى عصر الموحدين « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد فى الدنيا اكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات منها » كما يقول المراكشي بشيء غير قليل من الغلو على ان الفن بفاس اصبح مزيجا للكثير من العناصر العربية فاذا ضربنا مثلا بالزليج الذي عرف فى الشرق بالفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي اصله من الاندلس كان يصنع منه بالاندلس نوع من المفضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء (النفح نقلا عن ابن سعيد ج 1 ص 187) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التلبيس والترسيب والتنزيل اصبحها عند العرب فى العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع سوري في اصله عرف باوربا الى الآن بالفن الدمشقي Damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها « اعراف المسلمين وعاداتهم » (ص 247) .

وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والاجهزة والادوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وتكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية فى العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب فى هذه المفردات التى نجد منها فى الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاشفى (مخرز الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة (القرط) والثلج والحنبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذى حماه البلاط الموحدي بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (24) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخارف المحكمة » وفرست فيه « الاشجار المثمومات والماكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك فى وسطه احداها رخام ابيض » وما له من « الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم » وتزويده بالادوية والصيادلة « لعمل الاشربة والكحول » مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحدي الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذى بد فى نظره مستشفيات باريس فى عنفوان القرن العشرين (25) .

وسنرى كيف بلغ المصطلح العلمي اوجه فى هذه الفترة التى حاوى خلالها العرش المغربي فى ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية فى شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث باوربا حيث ظلوا اساتذتها المرموقين طوال قرون .

---

23) «المعجب فى تلخيص اخبار المغرب» طبع بسلا عام 1357 ـ 1938 (ص 213 ـ 221) لعبد الواحد المراكشي

24) نفس المصدر ص 177

25) الموحدون Les Almohades للسيد Millet ـ طبعة 1927

اما المرينيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب وافناها واحقها بتبني التراث الموحدي في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع في مجموع الشمال الافريقي (26) حيث تبلورت مدنيتهم الحضرية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني 731 هـ ـ 752 هـ 1331ـ1351م الذي يعتبره المغربيون اقوى عاهل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارثة الاندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال الهجر الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لاول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (27) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان نقدر من خلال وصف (28) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارباب الصناعات كالبنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين » والجدران المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم النجارة والصناعات المشتركة كالتوريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطيافير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها المموه بالذهب والحديد المقصدر »

غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البادية (اي الارياف والسواد) ظلت نسبيا في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثا لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لمقتضيات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارباض عواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بتراثها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين(29)بلغت في مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعامل والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الازياء ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحو يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي خيوط مدلاة او النواسة)بعد النفي العام اوائل القرن السادس عشر الميلادي لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisitions) حيث اجبر الاسبان العرب المسحين على التميز بشارة زرقاء

(26) مارسي Marçais ـ في كتابه « L'Art dans l'Islam » حول تاريخ الفن الاسلامي ص 134 ، وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتاثير الغرناطي الموسيقى الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي .
وقد اسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحا ومنهم محمد الغساني الذي كان تاجرا بقيسارية «اسفي يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطأ والسير والنحو والآداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (توفي عام 663 هـ (الذيل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله معن الذي كان يتمعش (كلمة مغربية معناها يتعيش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج 1 ص 197) .

27) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .

28) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بانه رسم في كاغد لتقدير الساحة (اي المساحة).

(29) في عام 1 019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم اكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النفح ص 101) .

ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو ايضا عادة اندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (اي العنصرة كما تسمى في العدوتين) اي 24 يونيه وذلك الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية (النفح ج 2 ص 752)

اما في الحقل العمراني فان « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ ـ 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (31) كتبت في ابهائها الاشعار بمرمر اسود في ابيض تذكرنا بروائع الاندلس : فمن شعر ابي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف هذا الفن قوله :

فانها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكان ارض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين امامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة
ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدوان المصرية (32) المطلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وارض النديم اهلة وشموسا

وكان هذا الاطار العمراني الرائق مسرحا لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي يجري خلالها اعذار ابناء المعوزين ويتبارى الشماعون في تطريز شموع « يحملها صحافون ـ كما يقول الفشتالي في مناهل الصفا ـ محترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالعذارى تتبعها الاطبال والابواق واصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على اريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وامامه شموع من بيض كالدمى وحمر جليت في ملابس ارجوان وخضر سندسية في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولديات واشعار الصوفية وتتلى قصائد شعراء الدولة بغزلها ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده في تراتيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الامام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزنيون ويختم الحفل بنشر « خوان الاطعمة والموائد » و « توزيع الاعطيات » وكان هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونمارقها المصطفة واستارها وكللها وحجالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ووصفانها واعلاجها باقبيهم المخوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة (33) ـ صورحية لفخفخة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الاثرياء حيث استعيض عن القصاع المالقية والبلنسية المذهبة وعن الاواني التركية والهندية والطسوس والاباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية باوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف انحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي اغصان الريحان الغض وماء الزهر والورد . كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الاندلسية الرائعة التي تسحر الالباب بنغماتها المشجية وتلاحينها الاخاذة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تتردد في حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتاجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوي في الدارجة والفصحى على

---

(31) اي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل اي بالنقش وكانت الجدران تحلى احيانا بانواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الاصل. وفي سلانماذج من اصل فارسي او شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تاثير الانسجة الاوربية وكذلك في ازمور التي يرجع تاريخ نماذجها الاسبانية الايطالية الى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .
وهناك بفاس تطريز علجي الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات او الجركسيات اللواتي تسرى بهن اهل فاس اما التطريز التطواني فهو من اصل بلقاني .

(32) المصرية اي الغرفة الواقعة في طبقة عليا ولعل لوجود طبقات في الابنية منذ القديم بمصر اثرا في التسمية .

(33) راجع النفحة المسكية في السفارة التركية لعلي بن محمد التامجروتي .

السواء فكم من تعابير تخللت الالحان كانت ارسخ في البواطن واملك للوعي وكم من اغنيات ساحرة رددها الرضيع في حبوه وربة الخدر في حجلتها كان اثرها اوقع في النفس ولفظها اعلق باللسان من كل قصيد يلقن في الكتاب او درس لغوي يلقى في حلقات العلم .

واذا كان عهد السعديين قد نضدت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فان عهد العلويين الذي اقيمت فيه نفس القصور والبساتين مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بنفس انبذخ قد اتجه الى دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن اروع ما يبدهك في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفخة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بابراجها ومدافعها ازاء البرك الفياضة للتمرين والانبساط في فلكها وزوارقها وكانت اهراء القصر تضم اثني عشر الفا من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازنا وقد بدانا بالرغم عن اصالة اللغة العربية بالمغرب نسمع في معماريات العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالقنانيط (اي الهياكل) المقبوة في الاهراء والاصطبلات المسقفة بالبرشلة (وهي نوع من انروافد والعوارض Pignon) وسواني الماء الدائرة (اي النواعير المائية) والقراميد علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الاشبار (اي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود والكور والبنب (اي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس والكراريص (اي المدافع المجرورة والضوبلى) لتحرير الثغور المحتلة وبعث الباشدورات الى طوافية (جمع طافية) الاصبنيول او البرتغال او «النجليز» لاحكام الصلح ومفاداة الاسرى البلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (اي المدفعية) والبحرية المغربية بغلالطها (سفنها الحربية) وفراكطها (اي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت الى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة والباصبورط (الجواز) والطنبور والكرنتينة (المحجر الصحي) والمحلة (اي المعسكر) وصاكة الاعشار (اي رسومها) وصقالة (اي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البونب (اي انفجار القنابل) والبستيون (34) وانواع النقود كالبندقي في اربعين اوقية من الذهب والضبلون (Doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال Real فيه عشرون اوقية) والبسيطة (خمس اواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي اي نصف القرش) والسنجق وبقسماط (بسكويت) وكل تلك مظاهر للعجمة التي بدا المجتمع المغربي يتسم بها حيث « اتخذ ذوو اليسار ـ كما يقول الناصري(35) المراكب الفارهة والكسى الرفيعة والذخائر النفيسة وتانقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية » التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غريبة صالحة مثل فابريكة (اي مصنع) السكر وفابريكة تزديج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (القطار الحديدي) والتلغراف وهكذا الى غير ذلك وهكذا بدات تتجلى في الافق المغربي على عتبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قالبها الافرنجي دون تعديل وسنرى بحول الله خلال حديثنا عن تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية واشرابت الاعناق الى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت الى جوهر الاسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث .

---

(34) استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدا يستعملها وانداك سلفه من المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الاتراك فلاحظ ان اهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الاجنبية والمصطلحات العجمية حيث « عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم واذا كان اصل العمل ماخوذا من العجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه » . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

(35) الاستقصا ج 4 ص 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في معرض باريس عام 1285 هـ (اي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من انتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه

الفكر الثقافي

ا) اللغة والادب

لعل اول انطلاقة ادبية بلغة الضاد في المغرب الاقصى هي خطبة طارق بن زياد المشهورة التي انذر فيها الجيش البربري الفتي بانه اصبح في الاندلس « اضيع من الايتام في مادبة اللئام » وهي خطبة حماسية اقرب الى صرخة عسكرية بالفاظ نارية ومر نحو القرن (92 هـ ـ 188 هـ) بين انطلاقة الفاتح البربري نحو الاندلس وبين اعتلاء ادريس الثاني العرش خلا المغرب في غضونه من اي جو ادبي لان العربية نفسها كلغة ظلت تتعثر فلذلك كانت خطبة العرش الادريسية هي الانتفاضة الادبية الثانية القاها وهو ابن احدى عشرة سنة .

وقد ورد فيها بعد الديباجه المالوفة : « انا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف للمحسن فيه الاجر وللمسيء الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا » . وما لبث ان والى خطبه الرائعة كالتي القاها عندما فرغ من بناء فاس : « اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وانما اردت ان تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك » فهاذان الخطبتان وان كانتا عاديتين في اسلوبهما فانهما يرمزان الى مدى نفوذ العربية خلال القرن الثاني الهجري في المغرب لا سيما وان المولى ادريس كان لا يزال شابا يافعا قد تربى في بيئة بربرية غير ان الوسط الضيق الذي عاش فيه كان عربيا في روحه ولغته (1) قد دعم بمسحات من الحرس القيسي واليمني علاوة على ادباء امثال وزيره عمرو بن مصعب الازدي وقاضيه عامر القيسي تلميذ الامام مالك وكاتبه عبد الله الخزرجي ، وبدات منذ هذا العصر افواج من المغاربة تتجه نحو الشرق للحج فتقطع الفيافي طوال شهور مجددة الصلة بالعلماء والادباء من الجزائر الى مصر الى اليمن والحجاز لدعم اسانيد الغرب بأسانيد الشرق في التفسير والحديث والتصوف واللغة والادب وكان البعض يستقر في حواضر شرقية لفترة تقصر وتطول حتى تقوى ملكته في الادب واللغة فاذا عاد الى المغرب كان اسهامه اوفر وابلغ في تحقيق التزاوج الفكري بين جناحي العروبة والاسلام غير ان الفكر الادبي في هذه الفترة كان لا يزال في مخاض قد طغت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والعقائدية فسمكو المدراري بسجلماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذي اخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان وحمل ابو جيدة الفاسي في اوائل القرن الثالث التفاريع المذهبية فكان التبادل محدودا بين الشرق والغرب هذا عن طريق الاندلس الى ان انبثق العهد البربري حيث بدات رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الادريسي الى ابن جبير وابن رشيد والعبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان ومآت الاخرين (2) الذين اثاروا اعجاب زملائهم في العواصم الاسلامية بما انتجته قرائحهم وابدوه في مناظراتهم من عمق في الادراك وبعد في النظر ودقة في التحليل في اسلوب كلاسيكي امسى موحدا حتى ليعسر على القاريء ان يتبين بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتناسق المصطلحات وتجاوب الدلالات واذا كانت هنالك فروق نسبية في منهجية التفكير والوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التي سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشوف المستحدثة في الاطار المغربي .

وقد بلغ التجاوب مبلغا حدا بعض نقاد الفكر الى التنظير بين ادباء وشعراء من الشرق والمغرب الاقصى والاندلس فمنذ العصور الاولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد بن هانيء في « قصد الالفاظ الرائعة والقماقع المهولة وايثار التقعير » بينما لقب ابن هانيء بمتنبي المغرب وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب والمغرب يردد تلاحين الشرق فهذا ابو هارون موسى بن عبد الله الاغماتي الذي بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول :

لعمر الهوى اني وان شطت النوى
لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في اقصى خراسان ثاويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

---

(1) راشد مولاه هو الذي اقراه القرآن وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه والدين واللغة ورواية الشعر وامثال العرب وحكمها (الاستقصا ج 1 ص 70)

(2) راجع بحثنا « رسل الفكر بين المغرب والمشرق » (معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 72) .

وهذا المهدي بن تومرت يتمثل دوما بقول المتنبي :

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم

ومن شعره :

اخذت باعضادهم اذ ناوا
وخلفك القوم اذ ودموا
فكم انت تنهى ولا تنتهي
وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع ؟

وكانك وانت تسمع خطاب احمد بن عطية لعبد المومن الموحدي تتلمس نبرات شعر حطيئة وهو يتشفع الى عمر بن الخطاب في فلذاته :

وصبية كفراخ الورق من صغر
لم يالفوا النوح في فرع ولا فنن
قد اوجدتهم اياد منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

واذا استثنينا محاولات نادرة فان المغرب لم ينجب فحولا امثال المتنبي والبحتري وابي تمام ولا امثال ابن خفاجة الاندلسي في وصف الطبيعة :

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات خارجية دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه الخلجات قول ابن مجبر يصف خيل المنصور وكانه يستعرض ما استعرضه الثعالبي في « فقه اللغة » من ترائيب وتدرجات في الالوان مع مجاز رقيق :

عرائس اغنتها الحجول عن الحلى
فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب انه
وان جردوه في ملاءته التفا
واياق اعطى الليل نصف اهابه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا
فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا
واشقر مج الراح صرفا اديمه
واصفر لم يمسح بها جلده صرفا
واشهب فضي الاديم مدنر
عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من روائع بديعية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها اليومية حيث دخلت في معجمها الدارج اسماء عشرات الالوان كالادكن والابلق والارقط والاشخم والاشقر والاشهل والافر والمبرقش والخمري والبريش (اي مختلف الالوان) (3) .

وتتسم خطب السياسيين المرابطين منهم والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس الاوتار فمن قول عبد الله بن ياسين : « اياكم ان تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا الفة واعوانا على الحق واخوانا في ذات الله واياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة » . ومن نداء وجهه المنصور الموحدي لجيشه بالاندلس يحضه على الاستماتة : « شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيدا ومن عاش عاش غانما ماجورا حميدا» . ففي كليهما لون من المفاهيم وضرب من التعابير كاد يصطبغ بها الادب في شتى مجاليه فاستمع للقاضي ابي حفص بن عمر يتحدث عن علم القدماء : « اياكم والقدماء وما احدثوا فانهم عن قولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة وقلوبهم عن الاسرار محجوبة » .

ومن الاخوانيات (4) التي ضاهت اروع ما عرفه الشرق في العصر الفني للنثر رسالة للقاضي عياض الى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها : « عمادي ابا نصر مثنى الوزارة ووحيد العصر هل لك في منة تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ املا وتشكر قولا وعملا شكرا تترنم به الحداة ثقلا ورملا .. الخ » . واخرى من ابن هانيء السبتي متنبي المغرب اجاب بها ابا القاسم الشريف عن قصيدة اهداها اليه جاء فيها : « .. والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبلد القلب الذكي ولم يرشح القلم الزكي وعم الافحام وغم الاحجام وتمكن الاكداء والاجبال وكورت الشمس وسيرت

(3) اقتصرنا على نماذج قليلة من معجمنا « الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية »
(4) ومما امتازت به الاخوانيات عند اهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل انت وانا .. وربما خاطبوا الواحد منهم بميم الجمع .. قال ابن شيت في معالم الكتابة « ولا يعرف ذلك لغيرهم (صبح الاعشى ج 8 ص 148) .

الجبال وعلت سآمة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة وقامت لنوعي الادب قيامة حتى اذا ورد ذلك المهرق (5)وفرغ فصنه الورق تغنى به الحمام الاورق واحاط بمداد عدائه الغصص. والشرق وامن من الغصب والسرق واقبل الامل وذهب لاقباله الفرق ... »

ولم يكد يبزغ فجر العصر المريني حتى بدأ المزيج الاندلسي المغربي يتبلور فظهر علاوة على ابن خلدون امثال ابن الخطيب وابن زمرك وعشرات الشعراء والمؤرخين والادباء الذين اذكت شعورهم نكبات الفردوس المفقود وقد افاد الادب المغربي من هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطق الالسنة وحرك الاقلام وأسال الشاعريات، ولعل من اروع ما نظم في هذا الباب الملحون الذى نظم منه الشيء الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى البهلولي الذى قرض الى جانب ذلك اشعارا وزجليات تترقرق عاطفة وحماسا .

وكان نحيب الشعراء ينسكب في مراثي محزنة كلما استولى العدو على مغنى من مغاني الاندلس او مربع من مرابعه ولعل من اشد القصائد تاثيرا تلك التى نظمها شاعر مغربي او اندلسي مجهول لم يعثر على اسمه حتى الآن لما فيها من المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الوقع وقد قيلت بعد سقوط طليطلة منها :

لتبكل كيف تبتسم الثغور
سرورا بعد ما يئست ثغور
لقد خضعت رقابكن غلبا
وزال عتوها ومضى النفور

الى ان قال :

فلا تهنو وسلوا كل عضب
تهاب مضاربنا منه النحور
اتترك دورنا ونفر عنها
وليس لنا وراء البحر دور ؟
رضوا بالرق يا لله ماذا
رآه وما اشار به مشير

وقال الامام السهيلي عندما خرب العدو مسقط راسه سهيل :

يا دار ابن البيض والآرام
أم ابن جيران علي كرام !
راب المحب من المنازل انه
حيا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم الدائب على حفظ كيان الوطن ولو اداهم ذلك الى تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن صاحب الصلاة عندما قام خطيبا في وفد الاندلس امام الامير عبد المومن الموحدي :

هم الالي وهبوا للحرب انفسهم
وانهبوا ما حدت ايديهم الصفدا

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ حيث إذكت نفوس الجماهير والهبت احاسيسهم واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان المريني .

والناس طرا بارض اندلس
لولاك ما وطنوا ولا عمروا

وجملة القول انه وطن
في غير عليائك ما له وطر

وقد اوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قذفت به
ايدي النوى في القفر رهن سفار
بلغته ما شاء من آماله
فسلا عن الاوطان بالاوطار
صيرت بالاحسان دارك داره
متعت بالحسنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله :

ودم والمنى تدني اليك قطيفها
ميسر اوطار ممهد اوطان

---

(5) يلاحظ هنا استعمال ابن هانيء لكلمة مهرق وهو صحيفة بيضاء او ثوب الحرير الابيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد الاندلس الذي ظل منتظما نحوا من ثمانية قرون حتى صاح بعضهم حيرة وتحرقا :

كيف السبيل الى احتلال معاهد
شب الاعاجم دونها هيجاءها ؟

وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندي :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

وقال ابو المطرف بن عميرة المخزومي بعد سقوط بلنسية :

يحن وما يجدي عليه حنينه
الى اربع معروفها متنكر
ملاعب افراس الصبابة والصبا
تروح اليها تارة وتبكر

الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا
الى اللهو لا تكبو ولا تتعثر
كذاك الى ان صاح بالقوم صائح
واندر بالبين المشتت منذر
وفرقهم ايدي سبا واصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين يزرهون يمدح السلطان ابا الحسن المريني بقصيدة ملحون منها :

عسكر فاس المنيرا الغرا
وبن سارت بوعزايم

وقال ءاخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احيى معالمه
وقام منه بمفروض ومسنون
واقام مفروض الجهاد بعزمة
تركت بافئدة العداة فلولا
والله ما ادري وقد حضر الوغى
احسامه او عزمه مصقولا
حطت البلاد ومن حوته ثغورها
وكفى بسعدك حاميا للدمار

وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد
بسيفك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيبه
فبعدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحيي اجانا يخاطب مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ بن زيدان:

يا مالكا سعدت به اوطانه
فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب
ولكم على فاس الجديد الكلكل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد محمد بن سودة الفاسي :

ما من مليك ذاق لذة راحة
الا تجلى له الهوان فيسفل

الى ان قال :

وانفض غبار الذل وارفض ثوبه
يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذى يذكرنا ببعض حماسيات شوقي التى كتبها حيث كان منفيا فى باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وهكذا زخر الادب المغربي بعبارات والفاظ حماسية كالعضب ومضارب النحور والسبي والحزن والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والاصفاد والعزم والثغور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الذل ومآت اخرى تكاد تنفجر ايمانا وحيوية ولعل هذه النبرات هي من اغنى الآداب العربية فى الحقل القومي نظرا لتتابع الويلات على الاندلس وما كان لهذا اللون من الحماسيات ان يتفتق بمثل هذه القوة فى الشعر العربي بالمشرق الا ايام الحروب الصليبية وعند احتلال نابليون لمصر وكانت الصدمة ورد الفعل الوطني قويين لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام محتفظا بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار الخلافة العثمانية التى بسطت نفوذها على جل اقطار الشرقين الادنى والاوسط وبقاع شاسعة على طول الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينج من نفوذ آل عثمان حتى المغربان الاوسط والادنى فكان من الطبيعي ان تتمخض فى المغرب على اثر محاولات الاعتداء الاجنبية فى القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد منها تراثنا الفكري كنزا ادبيا يكاد يكون فريدا فى بابه .

وقد عرف المغرب الوانا اخرى للشعر انطبعت بالملق للملوك واحيانا بعمرانيات رقيقة واكبت الادب الشرقي في عصره الكلاسيكي الذى حفل بالكليشهات المتحجرة .

فمن ذلك قول ابي فارس الفشتالي ينوه بفتح السودان :

جيش الصباح على الدجى متدلق
فبياض ذا لسواد ذلك يمحق

وكانه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

وعلى لسان قصر البديع الذى شاده المنصور بمراكش :

سموت فخر البدر دوني وانحطا
واصبح قرص الشمس فى اذني قرطا

وصفت من الاكليل تاجا لمفرقي
ونيطت بي الجوزاء فى عنقي سمطا

ولاحت باطواقي الثريا كانها
نثير جمان قد تتبعته لقطا

وللقاضي ابى القاسم بن علي الشاطبي فى مجلس المنصور :

ما بال طيفك لا يزور لمامـا
وبمنحنى الاحشا ضربت خياما

ابعيش فيك عواذلي لساوهم
واموت فيك صبابة وغراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة عند ابلال المنصور من مرضه :

تردى اذى من سقمك البر والبحر
وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر

وبات الهدى خوفا عليك مسهدا
واصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

الى ان قال :

لئن صدئت بيض المعالي لقد فدت
تسيء الكماة البيض واللدن السمر

وانشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك المجاهدين بالعدو فى سبتة ايام المنصور (عام996 هـ)

هذه سبتة تزف عروسا
نحو ناديك فى شباب قشيب

وهي بشرى وانت كفؤ اللوانى
كافلت بعلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير اصيلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعلى
فالله ابلغ فى العدا المامولا

انضاكم سيفا لحتف عداته
وبكم غدا سيف الردى مفلولا

وفى عهد السلطان الغالب بالله السعدي زار وزيره وابن اخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي واحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم المدينة ارتجل الوزير :

اخلائي هذا المستقى وربوعه
وهذي نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى
وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
بهن غوان طرفهن جموح

يمس كاملود من الروض يانع
شذاهن من حول الديار يفوح

فعقب المنجور مرتجلا :

ويرفلن فى الحلات يختلن فى الحلى
وفيهن انواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لاقبال حب طال منه نزوح

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتغزل فى السوالف والخدود :

فتنتنا سوالف وخدود
وعيون مدعجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها
وشعور على المناكب سود

اهلكتنا الملاح وهي ظباء
وخضعنا لها ونحن اسود

ومن روائع النثر ما كتب به المنصور الذهبي الى الشيخين البدر القرافي والزين البكري : « هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذى صدحت على افنان البلاغة سواجعه وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت فى كل معنى من المعاني افانينه ومنازعه وتألفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله المدبة ومقاطعه واينعت بازهار العناية الربانية اباطحه الفيح واجارعه .. »

كانت بعض الالقاب والنعوت تتسرب من المشرق فتثير نقدا لاذعا لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي الى القول : « يتعين على العالم ان يتحفظ من هذه البدعة التى عمت بها البلوى وقل ان يسلم منها كبير او صغير وحد ما اصطلحوا عليه من تسميتهم بهذه الاسماء القريبة العهد بالحدوث التى لم تكن لاحد ممن مضى بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم اولى من يتحفظ على نفسه من هذه الاشياء ويذب عن السنة فى حق نفسه وفى حق غيره .. »

ومن نتائج النقد اللغوي ما كتبه الاجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقا على بيت ابن الرقاق المغربي :

على عاتقي من ساعديها حمائل
وفى خصرها من ساعدي وشاح

حيث استعمل هذا الوشاح فى معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها فى موضع حمائل السيف من الرجل وقد خطيء ابو تمام فى قوله :

من الهيف لو ان الخلائل صورت
لها وشحا جالت عليه الخلاخل

لانه استعمل الوشاح فى العقاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والحركة لان ذلك يدل على رقة الخصر وضمور البطن ..

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات كما كان المشارقة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب فى شخص افذاذه امثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوي واليوسي واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (فتحا) الفاسي ومحمد بن الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة واحمد بن الخياط الذى مكث طويلا فى القاهرة ايضا واحمد الهلالي الذى ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه . لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية يتمم بعضها بعضا فى هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والغرب فى الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق فى ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل فى البحث اللفظي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار وبينما غلب على تآليف المشارقة الايجاز (عدا البعض كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار فى الموضوع سواء فى التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون فى الاستطراد . واذا كانت صناعة التاليف قد انتهت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق فى شخص ابن ابناء المراكشي فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة) غير أن الامر لم يبلغ الحد الذى زعمه ابن خلدون فى المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظار لان التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء عهد الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد فى المنهج وايغال فى استظهار النصوص حيث ادى الحال فى بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف فى الاستظهار تجاوز المتون الى معجم اللغة ولكن هذا الاسلوب الذى كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسق بين واعيته وملكته التصورية قد ضخم على العكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة اعداد الادباء والشعراء فى سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة ولا يعزب عنا ان ابن القزاز البربري هو الذى صحت عليه اللغة بالاندلس بعد ابي علي البغدادي وان اهل شنقيط اقرب الى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة .

واذا اردنا ان ندرك نوع المعارف التى كانت سائدة فى ذلك العصر والتى احتكرت نشاط رجال الفكر فما علينا الا ان نستعرض زمرة ممن شملهم العهدان العربيان امثال البوسعيدي والافلالي والتمنارتي ومبارة والمرغيشي واليوسي والعياشي

وآل الفاسي والغساني والحلبي وابن زاكور واحمد ابن ناصر وغيرهم فستتضح لنا خطوط ذلك الاطار الذى انحصر فيه النشاط الفكري .

فمن عالم يكدح فى خمول موزعا يومه بين التدريس والعبادة الى مصنف لا يعدو شرح النصوص الفقهية او جمع تراجم الصوفية او وضع لوائح مطولة عن شيوخه واجازاته الى فقيه انصرف للقضاء او الفتيا فاحتكره حديث النوازل والاقضية والخصام والشجار .

ولكنك تجد ازاء هذا النزوع الفقهي والوجهة الصوفية اتجاهات من نوع جديد تضفي على المجتمع الفكري الوانا طريفة فانك تعثر فى هذه الفترة على دواوين شعرية وتحريرات تاريخية الى جانب كتابات فى الحساب والفلك والطب فهذا عبد الرحمن التنارتي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي ويؤرخ لسوس العالمة فى فهرسته القيمة وهذا المرغيثي يدلي دلوه فى كثير من شعب المعرفة بعد ان اقام فى زاوية الدلاء محفل الآداب والعلوم فيكتب فى الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة عن مجتمع عصره مازجا ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين التنزلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد الادبية وقد استقى الافراني مادة تاريخ المجتمع السعدي عن امثال هذه المصنفات ، وهنالك نوع آخر من التصانيف يتجلى فى (الدر الثمين) لميارة حيث نجد الى جانب الذيول الفقهية والتعاليق الصوفية طرائف عن الحركة الفكرية المعاصرة وبرحلة العياشي يظهر اسلوب جديد فى البحث يحاول ان يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء الواسع الذى يمتد الى الشرق الادنى حيث المناهج الدراسية تختلف نوعا ما عنها فى المغرب وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التاليف تتسم بميزات من طراز جديد فنرى العياشي يحاول ان يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو يحدثنا عن شراب البن فى الشرق مشيرا الى انعدامه اذ ذاك بالمغرب كما يصف لنا يوم المحمل بمصر ثم لا يلبث ان ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم معرجا على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم ثم يدرج فوائد طريفة كاستيناس المصريات المترفات بشراء ريال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوع هذا النوع من التاليف فى الوسط المغربي يحدث اثره السريع .

وقد افرق العلماء فى التصنيف حتى بلغت تآليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز مميزات العهد العلوي يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف فى الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والآداب ولكن اذا كانت بعض المصنفات صورة صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسي فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تترك مجالا لانبثاق ذاتية المؤلف مما يفقدها الروح والمتعة فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير فى النفس حب التطلع وروح الانسياق مع المؤلف حتى ليخيل للقارىء انه يعيش فى ذلك العصر وهل هناك لوحة تاريخية ابلغ من تلك الصور المتتالية التى يرسمها اليوسي فيشخص فيها الادباء فى مساجلاتهم والصوفية فى حضراتهم والملبسين فى دعاويهم والعوام فى خرافاتهم وتشبه الرحلة اليوسية رحلة احمد ابن ناصر من حيث الافاضة فى الحديث عن الشرق .

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر امثال الزياني والوزير الغساني والشريف العلمي .

فالزياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو باسلوب البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه فيكشف عن الحياة فى جزء من القارة الاوربية وينطبع اسلوبه التاريخي بمنزع جديد لانه يحاول مزج وصف الاحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية. اما رحلة الغساني الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت ادباء المغرب اذذاك باساليب الحياة فى بلدان مسيحية ووصفت المجتمعات الاوربية وحياة البلاطات والطبقات الارستقراطية الاسبانية ، وتجد الشريف العلمي يفرد ادباء وشعراء بتاليف خاص فيتجه بالتصنيف اتجاها فنيا يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات اجراها مع اثني عشر من معاصريه كالحلبي وابن زاكور ومسعود المرنيسي والغزال والبوعصامي غير ان هذا (الانيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذى كان يصطبغ به التصنيف فى القرن الثاني عشر وهو الانتشار وعدم التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية بقلائد العقبان للفتح بن خاقان او المنتقى المقصور لابن القاضي . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذى هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاي امنت البلاد واهلها
فلله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلبي مطلعها :

يا رب اني ضعيف هالني الوجل
ما حيلتي يوم هول العرض ما العمل

واخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد الصياغة) صدرها بقوله :

اتق الله ما استطعت فان
الله ربي مع الذين اتقوه

هذا مع ان للحلبي مقامات عارض بها الحريري ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة) و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد) والصنيع البديع وشرح المقصور والممدود وشرح لامية العرب والمعرب المبين وغير ذلك .

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء هذا العصر فالشاعر مسعود المريني (واعظ المدينة المرتدي بالوقار والسكينة) الذي له تآليف في التصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن الفارض يقول في مطلع قصيدته :

يا رب انك موجدي ومكوني
ومدبري ومصوري ومشكلي

وفي اخرى :

سهام الموت راشقة النبال
ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول ايضا :

طيف الخيال تعرضا
اخذ المقام واعرضا

واثار وجدا كان في
طي الاضالع اجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السين محتذيا بابن الخطيب :

سلام كنسمة مسك سرت
لانفاسكم بنسيم سحر

لساحتكم ساقه مستهام
سباه سنا حسنكم وسحر

ومن شعراء العصر ايضا محمد بن العربي الشرقي (شاعر الاوان الذي لم يشتمل على مثله ديوان) القائل في حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر لا يطلق الا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر اما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبناؤه على غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر الذي كان شعراؤه يستوحون من ارواحهم المضطلعة باوار التقوى وفي ذلك الحوار الذي دار بين هؤلاء الشعراء وبين الشريف العلمي الوان شتى وضروب مختلفة للآداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك العصر .

وبعدما يذكر العلمي شعراء معاصرين آخرين امثال احمد عمور نراه يعرج على كتاب العصر كالمهدي الغزال القائل في وصف راقصة :

قامت بكاس الروم راقصة
بين الغواني رقصها يطرب

كانها والكاس في يدها
بدر تبدى حوله كوكب

وفي وصف بستان :

انظر الى الروض وقد نثرت
عليه اوراق من الياسمين

يحكي بساطا ناعما صيغ من
زبرجد يعلوه در ثمين

ولكنه يقول ايضا متاثرا بنزعة العصر :

الموت لا شك آت
وكل آت قريب

فتب وتب قبل ان
يعتريك منه وثوب

ومنهم عمر الحراق القائل في ديوانه يفاخر بمسقط راسه شفشاون :

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما
نيل بمصر وما العاصي لدا حلب

في جنب شفشاون الغراء ان فخرت
بتينها وبزيتون وبالعنب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التعاريض في الضروب والاعاريض) الذي رثى وغزل وجد ما شاء وهزل) والاديب البوعصامي (بليغ مصره وامام الادباء في مغربه ومصره رحل الى المشرق، وطلع عليه كالبدر المشرق) القائل :

محى بدمع كالعقيق محاجري
شوقا لطيبة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل فى ترتيب النغمات الثمان التى عليها مدار الغناء والالحان.

ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

اسقياني كؤوس بنت الدوالي
ان عراني السقام فهي الدوالي

الى ان قال :

كم ليال قطعتها في نعيم
حفظ الله عهد تلك الليالي

بين راح وشمعة ومغن
وظباء قنصتها باحتيال

ولكنه ينفعل (لنزعة العصر) فيقول :

رب يسر لعبدك الفتح واشرح
صدر من صدره من العلم خال

ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر مطبوع .. واديب همام) القائل :

عذيري من هوى غصن رطيب
اراني البدر من فوق القضيب

مليح فاتر الالحاظ طفل
صبوت لحسنه بعد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذى كلامه (يغار منه امرؤ القيس وبحن اليه جميل بثينة وقيس) القائل :

الى كم قدتك النفس ترمي فؤادنا
بسهم نضي اللحظ ارياشه هدب

الى ان قال :

فدونكم ربات قرط خريدة
مفوفة هيفاء هام بها الحب

مبرقعة لمياء غضة بضة
سوى انها عذراء ناهدة عرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك ان شعراء العصر العلوي الاول مراتب فهم بين فحل (يتصرف فى فنون الكلام كثير الاغراب لا يعلم له مراد ولا يفهم من ابياته الا افراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمي فى انيسه امثال عبد الواحد البوعناني مفتي فاس الذى هنأ المولى اسماعيل على تحرير العرائش بقوله :

الا ابشر فهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزكم الامور

وقد وصف اشرلباب اعناق المدن المختلفة الى التحرر على يد السلطان فقال :

ووهران تنادي كل يوم
متى ياتي الامام متى يزور

وقال قبله :

اذا ما جاء سبتة فى عشي
تناديه اذا كان البكور

ومنهم عبد السلام بن حمدون جسوس القائل :

رفعت منازل سبتة اقوالها
تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسمعوا تسالها

فلقد قضيتم للعرائش حاجة
مع طنجة فاقضوا الذى آمالها
وارفع لهذا الغرب راسا انه
فى الضعف ما دام العدا انزالها

وقال عبد السلام القادري :

علا عرش دين الله كل العرائش
وهد بنصر الله قصر العرائش

تلك الوان خاصة من الشعر الوطني الذى يحاول فيه الشاعر التعبير عن آلام الشعب وآماله .

وعندما قام المشاغب ابو حفص لوقاش يدعي الملك قائلا :

انا عمر الموصوف بالباس والندى
انا عمر المذكور فى ورد الجفر

اجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها :

فى صفحة الدهر قد خطت لنا عبر
منها ادعاء الحمار انه بشر

وهذا لعمري ابدع فى فن الاقداع .

وفى هذا العصر كانت زاوية شرقاوة فى ناحية تادلا محفلا للآداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء فشملت بعطفها كثيرا من الادباء الذين وجدوا فى ربعها المقام الرحب كالافراني الذى بدأ حياته التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسي وهو نموذج للنثر (الفني) فى ذلك العصر اما الزاوية الناصرية فقد احتفظت باشعاعها فى الجنوب وفى (الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرعي صور ناصعة لآثار هذه الزاوية فى العلم والآداب والكتاب ينطوي على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منها مقطوعات كلها تفجع على اهل الدلاء كقول العربي الفاسي:

ادار بذات السدر فى الجانب الشرقي
سقاك الحيا ما دام صوب الحيا يسقى

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

المم بدرعة واختر للنزول بها
زاوية الفضل مأوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمي الشكلنطي الرباطي :

يا حاديا اسرع بذات الزمام
وادع رعاك الله حق الذمام

عانني امسيت ذا قلق
من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال :

ورشا من آل يافث
لحظه بالسحر نافث

يخطا السين الى تاء
المثاني والمثالث

قلت جدلي بوصال
قال دع عنك الوثاوث

وتذكرني هذه الابيات بالبيتين الذين ساقهما الجاحظ فى البيان والتبيين :

والشيخ رايته
يفعل ما لا ينبغي

قلت له انت بري
قال بلى انا بغي

ويمكن القول بان تلك النهضة الادبية الرائعة التى عمت بلاد سوس فى العهد العلوي حتى تفتحت القرائح من بعض ما انتجه الفكر المغربي ـ انما يرجع فضلها للحركة الناصرية التى نشرت العلوم والفنون الى تخوم الصحراء .

وهذه العجالة تضيق عن استعراض النماذج المختلفة للحياة العقلية فى العصر العلوي ولعل فى كتاب (نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني) لمحمد القادري مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

وقد ضرب الملوك الادباء بسهم وافر فى هذه الحركة فحفظ السلطان محمد بن عبد الله الاغاني للاصفهاني مع صحاح الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية وكان فى ذلك بعث جديد للغة العربية واصولها وآدابها وفى هذا العصر ظهر محمد بن الطيب الفاسي استاذ الشيخ مرتضى الزبيدي المصري الذى الف اكبر موسوعة لغوية فى العصر الحديث هي تاج العروس فى شرح القاموس للفيروز اباذي (6) والذى كان يصحح من املاءاته معاجم اللغة كما فعل ابن القزاز البربري فى العصور الاولى .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف فى مجموعه عن سابقيه فقد امتدت الى اوائله حياة رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالي الزبادي اللذان مات كلاهما عام 1209 وكانا انموذجا جديدا لعلماء يحرصون على انتاج الشرق للتبحر فى علوم لم تكن منتشرة فى المغرب الا عند الخواص وقد كان العالمان رسولين من المغرب الى الشرق فى هذه الفترة للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة فى القاهرة حيث تبلورت معطيات الحضارة الاسلامية فى الازهر الشريف ومن نبغ فى هذا القرن من رجال الفكر ابن عجيبة الذي تحتوي فهرسته على معلومات

(6) قال الزبيدي فى شيخه هذا: ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابى عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتي فى هذا الفن والمقلد جيدي بحلى تقريره المستحسن (التاج ـ المطبعة الخيرية ـ مصر 1306 هـ ص 3)

حول الحالة الفكرية في تطوان وسليمان الحوات الذي جمع في البدور الضاوية اجازات الدلائيين ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون ابن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد ابن ادريس الفاسي :

بسليمان قد سلمنا وسرنا
فالعلى منزل له والعلاء

كفه كفت الفساد وكفت
كل عاد فما لكم اكفاء

وبلغ صدى المفاخر السليمانية تونس الشقيقة فتحركت شاعرية فحلها الهمام ابراهيم الرياحي الذي نظم قصيدته الخريدة التي مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذي رد الخلافة غضة
وسما به للمسلمين منار

ومن شعر ابن ادريس يستنفر الشعب لحرب اسفي مشيرا الى زحف الصليبية من الشرق ضد الاسلام :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم
الى الجهاد فما في الحق من غلط

فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

فوائح المكر تبدو من خوانمه
فعنده المكر والمكروه في نمط

من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفط

وقد تعزز النشر بالمطبعة الحجرية التي اسست بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات. وقد اتصل حبل الادب على الطريقة التقليدية في النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات التصنيف في نطاق محدود على فرار القرون السالفة مع ايغال في الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية تجرد عالم التاليف من كل روح .

ومن الصعب التمييز استنادا الى منهجية التعبير وحده بين مصنفات يتارجح تاريخ انبثاقها بين قرون ذلك ان اسلوب الادباء واللغويين ظل في كلاسيكيته المتحجرة في منأى عن الاهتزاز للكثير من النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري المتجدد واذا كانت اللغة كائنا حيا يتدرج في مراحل النمو بين الطفولة والهرم ثم الانبعاث في طفرات جديدة فان اللغة العربية بالمغرب الاقصى خاصة قد احتفظت بطابع اصيل خلال خضم الاحداث السياسية والحضارية واذا كان هنالك عامل منطقي لتعليل هذا التحجر فهو ان الكثير من ادبائنا ولغويينا ظلوا عالقين بابراج عاجية في حين ان لهجة التخاطب كانت قد درجت في المجاري الحية الفياضة وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بتسرب الدخيل الاجنبي وقد تجلت روح التجديد عند ادباء او في مراسيم ومراسلات رسمية فظهرت بدلا من مصطلحات معربة في قالب رصين الفاظ عامية على حساب اللغة الاصيلة الفاظ عامية تكثر وتقل تبعا للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق الماجريات وان كانت خطابات ووثائق سياسية اخرى احتفظت باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة والوضوح .

اما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ احمد ابن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم « الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » منذ عام 1329 هـ ـ 1911 م في الوقت الذي انبثقت الثورة من اقصى الجنوب بزعامة ما «العينين لتحرير المغرب من الزحف الصليبي فاتحفنا بصور رائعة عن فنون من الشعر الرفيع ابدعته قرائح الصحراويين المغاربة في قلب الفيافي القاحلة مجددين بذلك عهد الجاهلية الاولى في نصاعة الاسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى وفخامة المبنى وكانت ضروب القول لا تتعدى الاطار التقليدي من مفاخرة ومهاجاة ومديح وغزل وتشبيب وقد برز عشرات من الشعراء والناثرين خلدوا اللغة في اصالتها وروعتها الاولى .

فمن شعر ابدا محمد بن محمود يصف مرافق الصحراء :

حملنا الخيام وانضادها
وسرنا جميعا لقالا بطا

نجر العجاف رويدا لئلا
تخب فتبهر او تلغطا

ومن الازجال العامية التي اصبحت تسير مسرى الامثال عند الجماهير قصائد « الملحون » للفقيه الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام 1319 هـ) .

مدمن علال
محدود الفعيال
افكل الاوال
اسر من حنش (7)

ومنها يذم قبيلة باسلوب عربي لاذع :

ما فم المغفير
وبلا خيم اكبير (8)

اما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ ازيد من مائة واربعين سنة ولكن بلغات اجنبية خاصة في سبتة وطنجة الى عام 1868 حيث برزت جريدة اسبوعية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والاسبانية) تحلل احداث العالم وماجريات المغرب ، وفي عام 1889 صدرت اول جريدة عربية اسمها « المغرب » وتنافست المفوضيات الاجنبية فصارت كل واحدة منها تصدر صحيفة باللغتين الاصيلة والعربية لمهاجمة الحكومة المغربية تمهيدا للحماية .

ولم تكن تصل الينا آنذاك سوى جريدة « الاهرام » المصرية التي كان المغاربة يتهافتون على قراءة الاعداد القليلة الواردة منها ثم توالت الصحف العربية في اوائل القرن العشرين فظهرت «الفجر» و «لسان المغرب» و «السعادة». وانصرف الفكر المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة فلم تظهر اول دورية وطنية الا عام 1932 وهي مجلة «مغرب» التي ما لبثت ان تعززت بصحف اخرى مثل مجلتي(السلام)(والمغرب الجديد)وجريد(الحياة)تعقدها في المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة واعية شكلت الاطر الوطنية الاولى للخلايا التي انبثت في البلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بتلهف ما يتسرب خفية الى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتاليف والنشر من الصحف والمجلات (9) وبدات روح جديدة تتفتق في اسلوب حماسي رائع يستمد اواره من النهضة القومية بالجناح الشرقي للعروبة وخاصة بمصر والشام فظهر شعراء لمع نجمهم وبدا الشعر يعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي ويتخلص تدريجيا من وطاة المفاهيم الكلاسيكية حول الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحا لمعطيات طريفة اكثر صلة بمستحدثات العصر ومتطلبات التطور ومع ذلك فان هذه الفترة لم تكن خالية من تخضرم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جيل ما قبل الحماية وجيل التوثب الجديد الذي اشاد به الاستاذ علال الفاسي في مخطوط حياة « وادي الجواهر » فمنهم محمد غريط صاحب « فواصل الجمان » حيث ترجم لازيد من ثلاثين من « وزراء وكتاب الزمان » كان ينظر الى قيمتهم الادبية بمقياس جديد فقد تحدث عن اديب « استكتب في وزارة الخارجية الى ان شالت نعامته ووسدت في التراب هامته في عام نيف وعشرة وثلاثمائة والف » ثم حاول تعريف قطاع وزاري جديد في اسلوب قانوني ينم عن اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي حيث قال : « وزارة الخارجية عبارة عن الاستقلال بمباشرة دعاوي اهل الحماية وتنفيذ ما تعلق بها من عزل او ولاية والوساطة بين السلطان وبين سفراء الدول وكبرائها وكتابة الرسائل لملوكها ووزرائها » . ومن نظمه الرائق نشيد مدرسي نحا فيه منحى طريفا بين التوشيح والتخميس في ءمان جديدة .

قال :
يا بني الدهر اجيبوا
داعي النصح النير

(7) مد اي ماذا وعلال من العل يعني الذي يحلب نوق الناس بعد ان تذهب للري من عند اهلها وهو عندهم وصف في غاية الذم ومعدود افلعيال اي معدود في العيال اي عالة على الناس والانوال بيوت من الشعر واسر من حنش اي اكثر من الحنش سري .

(8) فم اي اصله ثم وهي لغة والتمغفير التخلق كالتمعدد اي التشبه بمعد بن عدنان) باخلاق بني مغفر ومغفر قبيلة بناحية فاس والخيم هو حسن السجية وهو الخلق كما عند ابن سيده في المحكم (فارسي معرب) ومعنى البيت ان هؤلاء القوم مجردون من كل الاخلاق المغفرية ومن السجايا الحسنة .

(9) واهمها مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضى التي كانت قليلة حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب الى التوجه للجزائر للاطلاع عليها .

واستجدوا ذكر قطر
كان ذا صيت شهير
جددوا للغرب مجدا
واركبوا كدا وجدا
واقدحوا للعلم زندا
والبسوا للحزم بردا
وابتغوا هديا ورشدا
تسمعوا شكرا وحمدا

وتروا رعيا جميلا
من ذوي القدر الخطير

ومنهم احمد البلغيثي الذى يعتبر انموذجا للعالم المبرز وللفقيه الضليع والمفتي البارع الذى يحقق قضايا القانون فى مصطلح دقيق يستجلي بواطن المعضل الى جانب شاعرية فياضة جمعت بين الصفاء والجزالة . ومن نظمه :

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر
ولكن لها فى القلب وقع البواتر

بدت لي وفى قلبي المنى بحبها
لواضح اشواق كحر الهواجر

اما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي حفيظ بطنجة وسيره بباريس فهو خطيب واعظ وناقد قانوني ، ومن شعره :

ليس التمدن ما يلهيك عن عمل
يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا

ليس التمدن فى عيب الذين مضوا
بل التمدن فى اجلال من غبرا

وقال فى قصيدة اخرى يصف بعض ما ظهر آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر وغواصات :

هذي المناطد فوق الجو تنشدنا
هذي المآثر والآثار فى الدول

هذي المراكب تطوي الارض تتحفنا
قرب المزار ويمن السير والنقل

هذا القطار يخد الارض ممتطيا
متن البسيطة فى سهل وفى جبل

هذي البواخر فى عمق البحار وفى
اعلاه تفعل فعل الفارس البطل

هذا التمدن هذا الفضل فاعن به
ليس التمدن بالالحان والغزل

ومن بين من برز من الشعراء فى هذه الفترة :

محمد السليماني الذى تمخضت رحلته الى الشرق العربي الناهض عن ثورة فى احاسيسه ومنهجيته ومن نفثاته التى يواكب فيها شاعر الكنانة حافظ ابراهيم قوله :

ولست الى النسيب اهش كلا
فان وراءه لمع السراب

ولا وصف المجالس يزدهيني
ولا جس المثاني والرباب

اليست امتي فقدت حجاها
وهذا عزها وشك الذهاب

وهذا صبحها يحكي مساء
غزالتها توارت بالحجاب

وقد وصف فى دقة وروعة جانبا من المآسي الاجتماعية والاقتصادية التى توالت على المغرب المحتل مشيرا الى نكبة العربية وتقلص ظلها وسياسة التفقير والتجهيل التي نهجها الاستعمار :

رضينا العي حتى لا فصيح
اذا ما قال سرك فى الجواب

ولا احد من اهل العلم منا
يقيم لسانه عند الخطاب

مصانعنا الم بها فساد
فاصبحت الصنائع فى اضطراب

وساد على تجارتنا كساد
فراس المال منخرم الحساب

وزاحم فى فلاحتنا اناس
جنوا من ريعها عجب العجاب

ونحن ازاءهم فقراء نلقي
بانفسنا باحضان المرابي (10)

(10) راجع «الادب العربي فى المغرب الاقصى» لصديقنا الاستاذ محمد بن العباس القباج

وقد كانت الدعوة الى التجديد فى نطاق الروح الاسلامية هي شعار العصر يتردد فى كل قصيد فمن ذلك ما قاله السليماني :

فكل زمان لـه حلـة
فالـق دلاءك بيـن الكـرام

وعبد الله الفاسي :

والبس لكل زمان حل حلتـه
فالشهم من يعرف الإدوار والعصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر حضارية مستحدثة كمناظرة الشاعر محمد بوعشرين بين الكهرباء والماء حيث يقول :

قد سبح الماء فى انبوبه سحرا
فقطب الضوء كالمزور من غضب

الكهرباء اراهـا قـوة جبلـت
على الحرائق والاسراف والعطب

ضوء الزيوت وضوء الشمع قد محيا
من آية الليل اذ انسرقت عن حجبي

الى ان شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخصت ادوارها فى اسلوب جذاب واستعمل فيها تعابير طريفة حيث قال :

تلك الرواية من تعبير نـادرة
تشخيص ادوارها من ابدع الخطب

وقد ردد المغرب فى تلهف وحنان اصداء الشرق المتنائي الذى حالت دونه حجب وعوائق مترسما خطاه فى كل شاذ وفاذ فقد عبر محمد ابن اليمني الناصري عن حرقة الادباء فى فجيعتهم بالمنفلوطي حيث قال مشيرا الى فن الفقيد والوان بديعه :

ما للمعارف ترسل «النظرات»
نحو الثرى وتسلسل «العبرات»

فالمغرب الاقصى يعزي مصر فى
ذاك الابي مذلل العقبات

يا مصطفى وليت منا لابسا
حلل الثناء موفق الخطوات

قد كنت فينا مرشدا ومهذبا
ومشذبا بالخير خير نبات

* * *

وظفر المغرب طفرته الرائعة بزعامة الاستاذ علال الفاسي ورفاقه الاحرار عام 1933 عند مطالبة الشعب بتخليد الذكرى السنوية للعرش المغربي كعنوان للوطنية الصادقة التى اظهرها جلالة المرحوم محمد الخامس وقدمت الكتلة الوطنية فى العالم الثالي برنامجا مركزا للاصلاح برهن بالاضافة الى روحه التحررية عن الخطوة الجريئة التى قطعتها اللغة العربية فى فترة وجيزة اصبحت خلالها قالبا حيا لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة رددها الشعب فى شعاراته مثل الغاء الحكم المباشر وفصل السلطة وتشكيل مجالس وطنية منتخبة واقرار الحريات العامة وحق الاضراب وتوحيد التعليم وضمان الملك العائلي وتوسيع القرض الفلاحي ومحاربة سياسة الادماج وتكوين الاحزاب وفتح المجال للبعثات العلمية الى الشرق العربي وحماية الصناعة الوطنية وضمانة السكن الصالح للجميع وتعززت هذه المطالب بحركة « تضامن » بين تونس والجزائر والمغرب وانعقدت «مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وادارة الحماية وصدرت صحف عربية جديدة ك « الاطلس » . فقطع المغرب بفضل هذه الانتفاضات خلال نصف قرن ما لم يقطعه فى آماد عريضة حيث تقاربت الاحاسيس وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية واتحدت مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها وتجانست مفرداتها فى الصحافة والاذاعة فى عواصم الشرق والغرب العربيين وانبثقت الى جانب هذه الثورة الفكرية نهضة علمية انعكست صورها على مجلات ودوريات مثل « رسالة المغرب » التى اصبح عنوانها رمزا لمدرسة القاهرة الناهضة فى شخص « رسالة الحسن الزيات » ورفاقه من الاخصائيين العرب الذين بذروا فى روعنا الايمان بقدسية العربية كلغة للعلم والحضارة فى العصر الحديث فكان للمفاهيم الجديدة وتعابيرها الطريفة صدى عميق فى نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين مزدوجي الثقافة وموحديها . ولاعطاء صورة عن « رسالة المغرب » التى تبلور فيها الانتاج الفكري الرصين فى المغرب قبل منتصف القرن الحالي ناخذ العدد الاول (11) من السلسلة الاسبوعية

(11) ونلاحظ ايضا فى هذا العدد فراغا ابيض هو عبارة عن جزء مقال قصته رقابة الحماية لانطوائه على عنصر لم يرقها وكثيرا ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء .

الجديدة (العام 1368–1949) حيث نستشف من عناوين الابحاث والدراسات الوجهة الجديدة في الادب والثقافة في المغرب الناهض فهنالك دراسات حول الانانية ومعجزة الاسلام المعاصرة وزهراء مجدولين او تنازع العوامل والعبقرية شذوذ والتنقيف الداني ورثاء شاعر مصر علي الجارم وقصيدة للشاعر المرحوم عبد الكريم بن ثابت الذي قضى شطرا من حياته في مصر

« وجهك الباسم » وهي من بواكير الشعر المنشور جاء فيها :

وجهك الباسم لي نعمى وروح وهناء
ورجاء لفؤادي كلما عز الرجاء

وشفاء لجراحاتي وسلوى وعزاء
ونعيم ذكرتني نفحة منه الخلود

حين كنا نجهل الدنيا وءالام الوجود
نملأ الفرحة روحينا ونبدي ونعيد

وكلانا يا حبيبي مثل انفاس الصباح
مثل همس السحر النائم في ضوء القمر

يتغنى بالاندية

ونقرأ في الفهرس العام لسنة 1950 فيفساء من الدراسات يعطي مجرد عنوانها لمحة عن اتجاه المصطلح العربي في المغرب منها : الشعور والانفعال ـ عصامية الادب ـ صلاتنا الثقافية مع مصر ـ الفكر الاجتماعي والفكر النقابي ورسالة الشعر وارادة الشعوب وكياننا الروحي ودفاع عن اللغة العربية والنزف الثقافي والعلم والشاعرية وثقافة هذا الجيل ومركب الكمال وشرقية الحضارة المغربية الخ ..

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر المغربي الحديث ، وللاستاذ الكبير علال الفاسي :

مضى الشطر من عمري وانى دائما
حليف هوى مغر وخدن اذى معدي

واطمح للروحي كبشم جرحها
فتابى سوى صدي وتابى سوى ردي

واطلب عقلي منجدا في كفاحها
ولكنها تطغى على العقل في الحد

تجاذبني اهواءها وتمد لي
ظلالا من الالوان لامعة المد

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الاستاذ محمد الحلوي :

اي دنيا انت يا دنيا الرؤى
يا ملاذ الروح يا نبع النبي ؟

سبحة من سبحات الروح في
افقك السحري عمر ذهبي

ونسيم عطر منسكب
منك في قلب وجيع متعب

نسمة تخلق من ءالامه
عبقريا مبدعا للعجب

في مجاليك استقيت الفن من
نبعه الفياض صافي المشرب

وتلقى قلبي اللحن الذي
يتلقى مثله كل نبي

سال في روحي شعاعا حالما
غاب في قلبي وروى ادبي

ومن شعر الاستاذ عبد المجيد بن جلون خريج « جامعة القاهرة » :

يا نديمي اسق نديمك
زده نعمى وحبورا
زده صفوا وسرورا
وخيالا وشعورا

يا نديمي اسق نديمك

فالا الاكوان خمرا
يندلع منها الشعور

ثم قل كون كبير
او فقل كون صغير

اوليس الكون سرا ؟

الليالي والعصور
في محيط تتقلب
انها حمقاء تصخب
والزمان الفظ يلهب

ظهرها وهي تدور

ومن شعر الاستاذ عبد الله ابراهيم رئيس الحكومة سابقا :

سر كرعش الكهرباء
الشته السنة القضاء

فانا هنا قـوى اندفـاع
ليـس يحكمهـا ذكـاء
فسل النجوم لو النجـوم
تجيب في لغة الضيـاء
وسل الصخور الجامدات
بـدون يـاس او رجـاء

وسل العباب الضخم يزحف في انخفاض وامتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بيـن عنـف والتـواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف افشاني القضاء ؟
امصير اتعاب الشعوب وما بغيتـه الى الفنـاء ؟

ومن شعر ادريس حسن العلمي من قصيـدة طويلة بعنوان « الصفاء » :

لدى منبع النور مهد السنـاء
زها الفجر رونقـه والسمـاء
وفي صفحة النهـر ناعمـة
يلمس النسيم ورقص الضيـاء
وبيـن الخمائـل اطيارهـا
تطربهـا بلديـد الغنـاء
وعند الروج وعطر الزهـور
وعند الهضاب وسحر الماء

نشدت لروحي الرضى والصفاء

ومن شعري النادر في صباي :

النور بـدد مـا اعتكـر
لمـا بـدا ضـوء القمـر
والارض فـي جنباتهـا
عرف الربيـع قـد انتشر
وانساح في الروض المنمنم
خـده مـوج البشـر
متنافـرا متزاوجـا
مستمرئـا حلـو السمـر
فالجـو يغشـاه السنـاء
ببرقـة تجلـو النظـر
والقلـب يخفـق نشـوة
فيشـع بالزهـو البصـر
والنفس نبـع فيضهـا
تتراحمت فيهـا الفكـر
والطيـر يشـدو زاهيـا
من فوق افنان الشجـر
نبراتـه رقـراقـة
مثـل الـزلال بلا وتـر
وجـداول فـوارة
يطفـو بصفحتهـا الـزهـر
والـورد بلـل خـده
قطـرات انـداء السحـر
في مثل حبات الجليد البيض
او سقـط الـدرر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربـي في مختلـف العصور وخاصة في الحقبة الحديثة تعطينا صورة عن تطور الفكر في الوانه الطريفة وانعكاساته التي تشرق وتخفت على التعبير اللغوي الذي واكب رغم تنائـي الديار تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى .

المؤثرات الدينية

كان تعليم القرءان والفقه هو الانطلاقة الاولى لتعريب الجهاز الديني في المغرب الاقصى حيث اناط طارق بن زياد بسبعة وعشرين من العرب رسالـة تلقين مباديء الشريعة الاسلامية الى الجيش البربري ثم عمر بن عبد العزيـز على راس المائة الثانيـة وما لبثت الدعـوة ان تقلصـت بسبب الاضطرابـات السياسية بين الامويين والعباسييـن فظهـرت فـي الميدان فرق الخوارج التي نقلت ءاراءها التحريريـة معززة بالقرءان والحديث ولعل انتشار الفكر القرءاني في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلـة البرغواطية الى وضع قرءان بالبربريـة في ثمانيـن سورة اطلق عليها اسماء للانبيـاء كـآدم ونـوح او حيوانات كالجمل والديك والحجـل والجـراد او الفاظ اخرى مقتبسة من القرءان كهاروت وماروت وابليس والحشر وقد توثقـت الصلة بيـن المغـرب والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالـم سمكو ابن واسول والد امير سجلماسة المدراري الى المدينة لاخذ العلم وربما العقيـدة الخارجيـة عـن عكرمة (1) مولى ابن عباس تعززت دولـة الشفريـة الخارجية في الصحراء المغربية الى منتصف القـرن الرابع حيث استحالت في عهد الناصر لدين الله الى امارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في مجموع اصقاع المغرب اذا استثنينا فلولا معدودة من الفرق ظلت تنافس الخـوارج كالشيـعة الموسويـن

(1) ذكر ابن خلكان ان عكرمة كان بربريا يرى راي للخـوارج .